

# الإمام السنوسي عالم تلمسان

الأستاذ الربيع ميمون

جامعة الجزائر

1- يمتاز العصر الذي عاش الإمام السنوسي فيه بالتحوّلات الكبرى التي كان العالم الإسلامي والعالم الأوروبي يعرفانها آنذاك على السواء. وهي تحولات كانت تهز كلا منهما هزاً وتتوجه به إلى رسم وضعه بالنسبة إلى الآخر رسماً نهائياً، للدخول في عهد جديد من تاريخ البشرية لازلنا لم نخرج منه إلى الآن.

لقد كان العالم الإسلامي في هذا القرن يتخبط في أحوال الإنحطاط عليط على الرغم مما كان يظهر فيه من حين إلى حين، هنا وهناك، من العلماء المصلحين الذين كانوا يجاهدون في الله حق جهاده لبعث الحياة من جديد في جسم الأمة الذي بدأ احتضاره منذ أن عرف الإمام أبو حامد الغزالي أن لا نساج لغزله الرقيق واضطر إلى كسر مغزله.

2- إنه لمعروف عن الإمام أبي حامد رضي الله عنه أنه أراد بقواه كلها إحياء العلوم الدين على أساس من العقل الذي كان يرى فيه شرعاً من باطن، وأساس من النقل الذي كان يرى فيه عقلاً من خارج، (1) ولكنه لم ينجح في مسعاه لأن المسلمين الذين كانوا في زمانه مرضى، وهم لا يشعرون، لم يفهموه، ولأن أصحاب المذاهب المختلفة التي هاجم آراءها وطرقها وفنائها كانوا يعملون بدون هودة ليبعدوا الناس عن أنوار فكره، وليضمنوا الرواج لآرائهم الزائفة لأن الدفاع عن مصالحهم كان هو الأهم بالنسبة إليهم، وإن كان ذلك على حساب دينهم وإخوانهم في الدين.

وهم أصناف: منهم المتكلمون الذين لم يحصل للناس من كلامهم ما يحق بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق، ومنهم الفلاسفة الذين حشوا كتبهم في الإلاهيات بالآراء الخطيرة الفاسدة، ومنهم أصحاب مذهب التعليم أو الباطنية الذين كانوا ينشرون بين الناس أموراً تتعلق بالتعليم والمعلم، وبالتأويل، لا أساس لها في الدين، ومنهم الم تصوفة الذين أخذوا يبتعدون عن طريق الحق لنسيانهم أن الدين الحنيف روحٌ وإع، وعمل بناءً، وليس شطحاً أو غيبوية، ومنهم الفقهاء الذين صاروا لا يعرفون أن الشريعة المطهرة نصٌ واجتهاد، وقلب وقالب أو روح ومادة، وأن مادتها لا معنى لها بدون روحها، ومنهم الإباحيون الذين جعلوا من الحياة مجرد لهو ولعب، ومن العلم تعالماً، ومن الدين تظاهراً ونفاقاً، ومن الفلسفة حذلقة أو «فلسفة»، ومن الأخلاق إنحلالاً، ومن النظام تحمراً من كل قيد، ومنهم النصارى واليهود وغيرهم من أهل الملل الذين لم يكونوا يعرفون لجهلهم وتعصبهم أن ما يدينون به بعيد عن تعاليم أنبيائهم صلوات الله عليهم وسلامه، ولم يكونوا دائماً للمسلمين، ولكن على غير هؤلاء من يطول الحديث عنهم (2)

لقد كان هؤلاء كلهم حرباً على الإمام أبي حامد الغزالي وكان بعضهم، زيادة على هذا، يهاجم بعضاً ليصفوا الجوّ له، ويفرض آراءه على الناس، وإن كانت باطلة، وكانت أمة النبي بينهم في وضع يشبه وضعها في زمان الإمام السنوسي، ويشبه وضعها اليوم إلى حد كبير، إذ كانت كالورقة في مهب الرياح لاتعرف أيّة وجهة تُؤكّل لأنّ تصورهما للإسلام لم يكن عن منابعه الصحيحة، ولا عن العلماء بالحقيقة، ولكن عن طريق هؤلاء الناس وفرقهم، وأحزابهم، ومن منظورها.

- لقد كانت على حالة يرثى لها، وفي حاجة ملحة إلى من ينقذها من وضعها المزري أو من أمراض نفسها أكثر مما كانت في حاجة إلى من ينقذها من هجومات الصليبيين عليها لأن هؤلاء لم يكونوا خطراً عليها إلا لأنها كانت مختلة الفكر والدين، وكانت الأسس التي تقوم عليها الحياة الكاملة فوق الأرض تعوزها.

ومع هذا فإنها لم تكن تحاول أن تتحرر مما كانت عليه من التدهور والانحطاط لأنه لم يكن لها وعي يدفعها إلى ذلك، ولم تستطع أن تتحرر منه، حين ظهر الإمام أبو حامد فيها، لأنها لم تستطع أن تستفيد من ثورته العارمة ضد أعوان الجهل والشيطان، للنهوض بها، لأن علماء الذين لم يكونوا بالحقيقة حالوا، وبكل الوسائل بينها وبين إستجابتها لندائه اللدني، استجابةً تعيد لفكرها منطقة السديد، ولعقيدتها أساسها الصحيح، ولدينها روحه السمحة السامية، ولققها مرونته الناجعة، ولتصوّفها مناهجه العالية، ولكلامها دلالاته الدقيقة، ولحياتها وجهها الباسم العفيف...

3- إن الإمام أبا حامد الغزالي بحر مغدق كما يقول عنه أستاذه إمام الحرمين(3)، وجهد علم كما يقول عنه تاج الدين السبكي(4)، وتاج في هامة الليالي، وعقد في لُبّة المعالي كما يقول عنه القاضي أبو بكر بن العربي(5). وهو من عمالقة الفكر الذين استفاد الناس من فتوحاتهم في العالم كله، ولا زالوا يستفيدون منها باستثناء أبناء ملته، وهو من العلماء بالحقيقة الذين لا تموت آراؤهم العالية ولكنها تجد دائماً طريقاً لها بين المذاهب المنحرفة المتناحرة، مهما كانت الظروف، وتصل إلى أن تجد من يفهمها من الناس، هنا وهناك، ومن يكون في مستواها، ومن يتأثر بها، ويدافع عنها، ويضمن لها الخلود، مهما كانت درجة الإعراض عنها في منبتها.

لقد أثر الإمام أبو حامد الغزالي في العالم الأوروبي بقوة إذ كان لفكره الفلسفي فيه تنقلٌ عجيب نجده إذا تتبعناه يمتد من القرن الثاني عشر للميلاد إلى يومنا هذا، وأثر أيضاً على سلسلة ذهبية من العلماء المشاركة، ومن علماء الغرب الإسلامي، بتصوره لعلم الكلام، أو للعقيدة، أصولها وواقعها وأبعادها، على طريقة الإمام الأشعري، إمام أهل السنة والجماعة، ولا سيما، في إفريقيا الشمالية على يد المهدي بن تومرت أمير المؤمنين، باني دولة الموحدين، وهو تأثير يفسر لنا بما لا مجال للشك فيه حياة الإمام السنوسي العلمية، وحركته الإصلاحية للنهوض بالعالم الإسلامي في عصره، والإرتقاء به إلى فهم عقيدته على حقيقتها بدراسة عقلية ومنهجية ذات درجات لعلم الكلام، أو أصول الدين أو الفقه الأكبر كما يقول الإلهام أبو حنيفة رضي الله عنه من زاوية كلمة الشهادة بالضبط، أو «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله»

وهي دراسة ترتبط بمبادئها وغاياتها في الجملة بدراسات الإمام أبي حامد الغزالي لإحياء علوم الدين، وبذلك التيار الفكري الذي تركه هذا الأخير ينتقل بعده من عالم إلى آخر في العالم الإسلامي، والذي صار يعرف فيما بعد بطريقة الحكماء المحدثين (6) وهو تيار يعتمد في معالجته لقضايا الدين، والدينُ تصورٌ شاملٌ، على النصوص الدينية. الثابتة، وعلى استعمال المنطق الأرسطي وعلى المهاجمة العنيفة للفلسفة، ولل فلسفة الإلهية منها بالخصوص، وعلى إلزامها بأسلحتها، أو بالحجة الدامغة على أن تبوح بحقائقها إن كانت لها حقائق، أو الإعراف بعجزها وأخطائها إن لم تكن لها إلا هذه، من جهة، وتيار يقوم على الإهتمام بالعلوم الدقيقة والتجريبية والإنسانية لتتبع مسلماتها، والإنتقال بها مما هي عليه إلى أحسن منه للإرتقا بالمسلمين وتوفير زائدٍ من الرفاهية لهم، وعلى معالجة مشاكل الساعة بما يقدم لها الحلول الناجعة التي يتطلبها العصر لأن لكل عصر مشاكله التي لا تعرفها العصور السابقة لأنها خاصة به من جهة أخرى.

وهو، من بعد هذا، تيار يمكننا أن نعد من علمائه بعد الإمام أبي حامد الغزالي، الإمام فخر الدين الرازي الملقب بسيد الحكماء المحدثين، والإمام الشهرستاني، والقاضي البيضاوي، وعضد الدين الإيجي، والإمام الشاطبي، وابن خلدون والإمام السنوسي ابن تلمسان ولجمها اللامع، وعالم الجزائر، وطودها الشامخ الذي انتشر ذكره في الخافقين بكتب تظهر هيئة ولكنها جد عظيمة، وبطريقة في التبليغ تظهر ساذجة ولكنها جد محكمة، وبشواطئ ديني يظهر محدوداً وقاصراً ولكنه بعيد الغاية وبعيد المرمى.

4- لقد عاش الإمام السنوسي في القرن الخامس عشر للميلاد، وهو القرن الذي بدأت فيه أنوار الحداثة تشرق على أوروبا بقوة، وبدأت تغيب فيه عن العالم الإسلامي كما يشير إلى ذلك العلامة ابن خلدون في مقدمته حين يتحدث عن إضمحلال العلوم الحكيمة في المغرب والأندلس، في زمانه، ويقائنها موفورة في المشرق، ولا سيما في عراق العجم، وما بعده فيما وراء النهر من جهة، ويتحدث عن نفاقتها في بلاد الفرنجة من أرض رومة وما إليها من العدرة الشمالية، وعن تعدد رسومها، وتعدد مجالس تعليمها، وتوفر دواوينها، وتكثر طلبتها من جهة أخرى، ولكأنه كان يتوقع ما كانت الأيام تخفيه عن حالتها بها وبالعالم الإسلامي فيما بعد فيقول: «والله أعلم بما هنالك، وهو يخلق ما يشاء ويختار» (7)

إننا إذا تأملنا ما يقوله ابن خلدون عن الوضع الثقافي للعالم الإسلامي والعالم الأوروبي في عصره، وتأملنا حالة القرن الخامس عشر للميلاد هنا وهناك استطعنا أن نقدر الدور العظيم الذي قام الإمام السنوسي به من أجل النهوض بالأمة الإسلامية في عصره على أساس من العلم والدين الصحيحين.

5:- لقد كانت أوروبا في هذا القرن تتوجه بخطى حثيثة نحو النهوض، أو نحو ما كان سيؤول إليه فكر أسلافنا لو استمرت مسيرته، ولم يتوقف عن الإبداع مباشرة بعد موت الإمام السنوسي الذي يمكننا أن نرى فيه، رضي الله عنه، علماً شامخاً يقع على الحد الفاصل بين حضارتين، ويُشرف بفكره الثاقب عليهما: حضارة أسلافه التي كانت تتوجه نحو الغروب، وحضارة أوروبا التي كانت تحمل دائماً طابع علماء الإسلام، وكانت تتأهب للشروق انطلاقةً مما وصل إليه هؤلاء.

وبالفعل، فلقد كان الإمام السنوسي من معاصري الخردبسال نيقولا القوساوي Cardinal Cuse Nicolas de (Cuse Nicolas de)، و«مارسيل فيسين» (Marcel Ficin)، و«بك دولا ميرندول» (Pic de la Mirandole)، و«سافونارول» (Savonarole) و«إيراسم» (Erasmus)، و«لوثر» (Luther) و«ليوناردو فنشي» (Léonard de Vinci) من علماء أوروبا. وهؤلاء هم كعلماء طريقة الحدائثة في العالم الإسلامي أصحاب اهتمامات بعلم اللاهوت، وبالمقارنة بين الديانات، وبالرياضيات والعلوم، وبالعمل من أجل التقدم والنهوض بأعمهم، وبالإعراض عن ظلمات الماضي، والتوجه نحو المستقبل وفتوحاته (8). لقد كانت اهتماماتهم في العودة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط صورة لاهتمامات الإمام السنوسي وأمثاله في مدينة تلمسان وغيرها من بلدان العالم الإسلامي، ولقد كان الإمام السنوسي، وهو في تلمسان نداء لهم، ومتفوقاً عليهم، ولكنه كان على خلافهم لأن همّة لم يكن تجاوزاً لقيود الماضي والحاضر لبناء المستقبل والفوز بفتوحاته، ولكن إنقاذاً لأمة أضاعها أهل السوء من أولى الأمر فيها حين أفسدوا عقيدتها، وأسأوا سياستها، وحرموها من طيبات الحياة، وأضعفوا شوكتها، وجعلوا منها هدفاً مكشوقاً لهجومات النصرى واليهود وغيرهم، ولقمة ستكون سائغة لهم بعد حين.

6:- إن العصر الذي عاش الإمام السنوسي فيه يشبه عصر الغزالي، ويشبه عصرنا إلى حد كبير. وبالفعل فلقد وجد الإمام السنوسي نفسه فيه، مثل الغزالي، أمام أفواج من أشباه علماء الدين كانوا كلهم حرباً عليه. ومع هذا فإنه لم يهزم أمامهم ولكنه تصدّى لهم، وكان له النصر عليهم في النهاية. وإذا كنا نعتبره عالماً، ونقدّره، ونحتفل به.. فليس ذلك لأنه ألف كتباً، أو لأنه كان مدرساً أخذ الناس عنه ما أرادوه. من علوم زمانهم، ولكن لأنه كان عالماً من عصره، وفي مستوى مشاكلة، ولأنه كان على إطلاع واسع بعلومه في بلده وفي البلدان الأخرى، ولأنه كان إماماً في كل منها، ولأنه كان قادراً على الإبداع فيها، والإتيان بما لم يُسبق إليه في ميادينها، ولأنه خدم الإسلام والمسلمين والناس كلهم بالعلم والحكمة والإخلاص.

لقد كان من بقية علماء الحدائثة المسلمين الذين هم أصحاب الفضل في ظهور علماء الحدائثة بأوروبا. ولذلك فهو في زمانه من هؤلاء إذا نظرنا إلى موسوعيته وقوة نظره، واهتمامه بالمشاكل التي لا يهتم بها إلا عمالقة العلماء، ووصوله في معالجتها إلى الحلول التي تستجيب لمقتضيات الوضع الذي يتطلبها، وهو من أبناء أمته إذا نظرنا إلى علاقته العضوية بهم، وجهاده من أجلهم، والدفاع عنهم والحرص على الإرتقاء بهم من حضيض البدعة إلى سمو العقيدة الصحيحة، ومن متاهات الخرافة إلى مناهج العقل الواضحة، ومن جمود الفقهاء إلى روح الشريعة، ومن دروشة الفقراء إلى التصرف السني القائم على تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والفهم السليم لهما.

لقد كان الإمام السنوسي في تلمسان قلعة للإسلام السني، ومنارة له إذ كانت دعوته لفقهِ مالك إمام دار الهجرة الذي لم يرد أن تحمل الأمة على موطنه بقوة السلطان لأنه كان يعرف جيداً أن للناس مقالات يجب تركهم عليها لأنها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولعقيدة الإمام الأشعري إمام أهل السنة والجماعة، ذلك الذي كان للمسلمين كلهم بعطفه عليهم ودعائه لهم، ولطريقة الجنيدى سيد الصوفية بعلمه وعمله... (9)

هذا، ويتجلى لنا. إذا رجعنا إلى مؤلفات السنوسي، أنه اشتغل بعلم الكلام أكثر مما اشتغل بغيره من الفنون، وأنه عالِم مسائل هذا الفن بطريقة لم تكن لغيره، ولا سيما في استخراجهِ لعقائد التوحيد من كلمة الشهادة، وأنه سعى من وراء ذلك إلى أن يجعله علماً يبنِي على العقل والنقل، وعلماً منهجياً في متناول كل المسلمين مهما كان بلدهم، وكان مستواهم العلمي لأنه وضع لكل صنف منهم ما هو في مستواه من الكتب.

ويظهر لنا أنه كان يعرب، وهو يسلك هذا الطريق عن روح الحداثة التي كانت تحركه، والتي حركت من قبله من العلماء منذ الإمام أبي حامد الغزالي إلى عصره بكيفية عجيبة وكفاءة نادرة. ولا شك أن روح الحداثة هذه هي التي جعلته وجعلتهم ينفصلون إلى حد ما عن طريقة القدماء من العلماء الذين كانت لهم مواقف أخرى تجاه الفكر اليوناني، والمنطق، والعقل، والنصوص الدينية، والعلم على اختلاف أنواعها. ولا شك أيضاً، أن هذه الروح هي التي جعلتهم يسبقون إلى أفكارٍ هي من صميم الحداثة في أوروبا، ويقدمون لهذه من المنطلقات ما يجعل منها امتداداً لحداثتهم في غير أرضها، وعلى أيدي رجال أبلوا في طلبهم للعلم، وفي نقدهم للقديم، وفي بحثهم عن الجديد أحسن البلاء. وهم غير بعيدين عن علمائنا لمن يعرفونهم، ويعرفون منطلقاتهم، ويعرفون كيف انتقل فكر علمائنا إليهم، ومن أهتم به منهم، وكيف صار يجري في فكر الكثيرين منهم من القرن الثاني عشر إلى يومنا هذا.

7:- هذا، ويتجلى لنا ما نقوله إذا عرفنا لماذا اهتم الإمام السنوسي بعلم الكلام أكثر من غيره، ولماذا ألف ما ألفه فيه، ولماذا ألفه بالكيفية التي ألفه بها، وإذا عرفنا بعض المباحث التي نجدُها لديه، ولدى علمائنا من قبله، كما نجدُها لدى علماء أوروبا منذ أن اصطدموا بالفكر العربي الإسلامي.

إن الإمام السنوسي ولد ومات، كما قلنا، بتلمسان في القرن الخامس عشر، وهو قرن كانت حالة العالم الإسلامي فيه غير سوية، ولا سيما في مجال العقيدة التي كان المسلمون لا يفهمونها على حقيقتها، ولا يتعاطفون معها لأن كلمة الشهادة لم تكن لها علاقة بأرواحهم لأنهم لم يكونوا يفهمونها، ولم يكونوا يدركون أسرارها، وإنما كانت لها علاقة بألسنتهم لأنهم كانوا، على الرغم مما هم عليهم من التخلف والجهل، يذكرونها ويتأثرون لذكرها وبذكرها، لقد كانوا يؤمنون بالله والرسول أشد الإيمان، ولكن إيمانهم لم تكن تترتب عليه كل آثاره لأنه كان إيماناً عن ورائه، لا يمكن أن يصدر عنه إلا تدين منحرف، وحياة لا تعرف غايتها، ولا يعرف صاحبها ماهي الطريق التي يجب عليه أن يسلكها ليُجعل منها حياة لها معناها الحق، أو حياة له بها قيمة في الوجود. إن العقيدة هي التي تعطي للإنسان صورته التي يتميز بها، أو التي تميزه عن الناس، ولذلك فهي أساسية في حياته العلمية والعملية والروحية وفي مساعيه كلها، ولذلك فإنه لا يمكن أن يكون وجود أو نهوض حق لأمة ولا يمكن أن يستمر لها بقاء كريم إلا بقدر ما تعيره لها من العناية، ومن الجهود لترسيخها الواعي في أعماق أفرادها لأنها هي التي تمسك الأمة وأفرادها من الإتهيار، وهي التي تجمع بينهم أو تفرق، وهي التي تعطي لمساعيمهم كلها في هذه الحياة معناها وبعدها، وأنوارها وظلماتها. (10)

8:- لقد كان الإمام السنوسي يستطيع أن يهتم بأي علم من العلوم المعروفة في زمانه، وأن يكتب فيها الكثير لأنه كان إماماً في علوم عصره كلها، ولكنه اختار علم الكلام دون سواه لأن هذا العلم له مكانة خاصة بين علوم الدين والدنيا، ولأن هذه العلوم لا تكون لها إلا حالته من الإزدهار أو الإنحطاط. وبالفعل فهو العلم المتكفل بإثبات مبادئ العلوم كلها، وهو العلم الأعلى في الرتبة إذ منه النزول إليها وإلى جزئياتها كما يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المستصفى» (11) وفي كتابه «جواهر القرآن» حيث يقول: «والعلم الأعلى الأشرف هو علم معرفة الله تعالى لأن سائر العلوم تُرادُ له ومن أجله، وهو لا يراد لغيره. وطريق التدرّج فيه من الأفعال إلى الصفات ثم من الصفات إلى الذات» (12). هذا، ويشرح المراد بالعلوم التي تراد بمعرفة الله جل وعلا فيبين أنها العلوم الدينية والدنيوية، ويبين أنها لا تخرج عن القرآن لأن القرآن فيه مجامع علوم الأولين والآخرين. وهي علوم منها ما لا يخلو العالم عن معرفته، ومنها ما لم يخرج إلى الوجود، ومنها ما خرج إلى الوجود واندرس، ومنها ما ليس في قوة البشر أصلاً إدراكه والإحاطة به (13) وهي، أيضاً، علوم مفترقة من بحر واحد من بحار معرفة الله، وهو بحر أفعاله الذي لا ساحل له. ويعني هذا أن كل علم يمكن أن يهتم به الإنسان هو، دائماً، علم يدخل تحت علم من علوم أفعاله جل وعلا. فعلم الطب مثلاً يدخل تحت العلم بفعله المتعلق بالمرض والشفاء إذ هو الذي يصيب الإنسان بالمرض، وهو الذي يشفي منه، وعلم الفلك يدخل تحت العلم بفعله المتعلق بحركة الشمس والقمر والكواكب ومنازلها بحسبان، وعلم تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً يدخل تحت العلم المتعلق بفعله الذي هو الخلق، والتسوية، والعدّل في أي صورة شاء. وهكذا كل العلوم الأخرى التي خرجت إلى الوجود، والتي لمّا تخرج إليه، وهي علوم لا يتناهى عددها لأن أساسها في أفعاله جل وعلا، وهي لا نهاية لها (14). فالطبيب والفلكي والمشرّج، والفنان، والفيلسوف، والفيزيائي والكيميائي، والجغرافي، وكلّ عالم ظهر أو سيظهر فوق هذه الأرض، كلهم علماء يهتمون بعلوم لها علاقة ببحر أفعاله جل وعلا. وهم إذ يصيبون فيها قريبون أو جدد قريبين منه، وهم إذ يخطئون فيها بعيدون أو جدد بعيدين عنه. وهم إذ يبحثون عن أسرار هذا الكون أو غيرها يبحثون عنها إما للإقتراب منه جلّ وعلا كما هو شأن العلماء المؤمنين، وإما لتأكيد ذاتهم والإبتعاد عنه كما هو شأن العلماء الراضين جهلاً منهم بحقيقة وضعهم في سلم الوجود. وجهلاً منهم بأن لا قيمة للإنسان مهما كان إلا بتوجهه إلى الله، والإقتراب منه، وطلب رضاه، وجهلاً منهم في نهاية الأمر بأن العلم لا تكون له حقيقته قائمة، ولا يكون في خدمة الإنسان ورقية إلا إذا كان صاحبه يعي أن أساسه في بحر أفعاله تعالى، وأن معرفة الله جل وعلا هي المتكفلة بإثبات مبادئه له، وأنه يحب عليه لأجل هذا أن يكون بحثه في العلوم وطلبه لها لوجه الله والفوز برضاه. وهو ما كان يراه علماءنا، وهو ما كان يراه، أيضاً، ديكارت الفيلسوف الفرنسي حين جعل الميتافيزيقا أساساً ضرورياً لبناء صرح العلوم، أو حين قال بأن العالم الرياضي لا يستطيع أن يتحقق من صحة الحلول التي يقدمها لمشاكله إذا لم يكن يؤمن بالله، حتى وإن كانت هذه الحلول بديهية بالنسبة إليه (15)، ويعني هذا أن النجاح في الحياة، أو في العلم، أو العمل به لا يكون صحيحاً، ولا يكون مضموناً لإنسان أو لأمة ما، أو للإنسانية كلها إلا إذا كان علم الكلام القائم على البراهين الصحيحة أساساً لهذا النجاح.

وهو ما فهمه الإمام السنوسي في القرن الخامس عشر للميلاد حين عزم «في زمان صعب فاض فيه بحر الجهالة، وانتشر فيه الباطل أي انتشار، ورمى في كل ناحية من الأرض بأموج إنكار الحق، وبغض أهله، وتزيين الباطل. بالزخرف الغار (16)، على وضع كتب في العقيدة أو في علم الكلام يتعلم منها المسلمون على اختلاف درجاتهم العقائد التي يَقُومُ عليها دينهم بالبراهين القطعية فيحققونها ويتحققون منها، ويتمسكون بها، ويرفضون ما سواها وَيَبْتُونُ عليها فروع دينهم، ويتحررون بمعرفتهم لها، كل حسب مستواه، من أولئك الذين يتعاطون التعرُّضَ لأمر الدين، أصوله وفروعه، وهم ليسوا من العارفين الأخيار، ولكن من الجاهلين المغرورين الذين هم في حاجة إلى من يعلمهم، لأنهم كثيراً ما يرون الظلمة نوراً، والنور ظلمة، وما أكثر وجودهم في زمان الإمام السنوسي وفي كل موضع، وما أكثر وجودهم في زماننا، وفي كل موضع أيضاً

9:- إن الإسلام دين عظيم لأنه دين العلم والحضارة في أعلى قممها، ولا يجوز لأحد مهما كان أن يتعاطى التعرض لأمره إلا إذا كان من العلماء العظام، وهؤلاء هم العلماء المجتهدين، والعلماء المجتهدين في العلم الديني والدنيوي هم أولئك الذين يحيطون بمبادئه ونهاياته، ويواقعه عبر العصور، وصاروا أهلاً لتصحيح أخطاء من قبلهم فيه، وأهلاً لإثراء ما تركه هؤلاء لمن بعدهم من الأنوار، وأهلاً لأن يجدوا في مجال إختصاصهم الحلول العبقريّة الصحيحة لمشاكل الناس في عصورهم، وهم أولئك العلماء الذين يتعلمون دائماً، والذين يعتبرون نفوسهم خدماً للإسلام والمسلمين والإنسانية بالعلم والإخلاص، «وأولئك المقيدون بنور البصيرة، كما يقول الإمام السنوسي والزاهدون بقلوبهم في هذا العرض الحاضر، المشفقون على المساكين، الرؤفاء على ضعفاء المؤمنين» (18) وليسوا أولئك الذين ينصبون نفوسهم أوصياء على الإسلام والمسلمين، بالمعرفة المزجاة، ويستغلون أمانة الجماهير وجهلها للوصول بهم وبدينهم إلى مراتب هم غير مؤهلين لها بالكلية، لا بالعلم الذي يدعونه لنفوسهم بدون خجل، ولا بالتجربة التي قد يتوصل إليها ناس بعد طول مراس لأنها تعوزهم.

فالمناصب الدينية والدنيوية لها شروط توليها. وهي شروط يخطئ الناس في تقديرها لأنهم يجهلون ماذا يقتضيه الدين ليسود فوق الأرض، وماذا تقتضيه الدنيا حتى يستقيم الأمر لأصحابها، وهي أيضاً شروط تتغير بتغير الأمكنة والعصور وتخضع لمطلوبات الظروف وأوضاع الناس فيها، ولا يمكن أن يجمعها إلا الإنسان الذي يعيش في عصره لأنه من عصره، أو الإنسان العالم المؤيد بنور البصيرة، وبروح من لدنه جليّ وعلا.

وإذا كنا نحن المسلمين نتخبط اليوم في أنواع من الأحوال لا حصر لها، فالسبب في ذلك يرجع إلى أننا دون مستوى المشاكل التي تواجهنا. ونحن دونها لأننا عاجزون عن تدارك ما ضيعناه طوال قرون من الجمود، وعاجزون عن الدخول في حداثة جديدة وذاتية، هي منا ولنا، نصير بها في عصرنا ومن عصرنا، لأن المتطلقات الصحيحة إليها تعوزنا. وهو أمر يفرض علينا أن تكون الأولوية في كل اهتماماتنا للإرتقاء بتكوين بناتنا وأبنائنا، وبنظام تكوينهم في مؤسساتنا، إذ لا يمكن أن يكون لنا نهوض إلا إذا كان لنا علماء بالحقيقة في كل علوم زماننا، ومن أعلى المستويات، ولا سيما في علم الكلام الذي هو علم أصول الدين والدنيا. فهو الذي تقوم عليه شجرة العلم كما يرى علماؤنا، وديكارت الفيلسوف الفرنسي

من بعدهم، وشجرة العلم لا يمكن أن تزدهر فروعها، وأن تعطي ثمارها كما ينبغي إلا إذا كانت أصولها سليمة وراسخة وجد قوية...

وبإمكاننا نحن الجزائريين أن نبلغ هذه الدرجة لو.. ولو... ولو... في أقرب الآجال.

والذي أعرفه إلى حد الآن بكل تواضع ومن غير إدعاء، وبكل أمل ومن غير يأس، أن لاعلماء لنا من الصنف الأعلى في العالم الإسلامي كله، لأن ظروف بروزها لما تقم. وإنه يمكننا أن نتبين ما نقوله، وأن نتحقق منه إذا قارنا تكوين الإمام السنوسي بتكوين أي عالم مسلم في عصرنا، ورأينا أن لا وجه للمقارنة بينهما على أية حال.

إن الإمام السنوسي ذو تكوين موسوعي، وعالم من أعلى طراز في فنون عصره كلها. ولهذا كان في مستوى تقديم الحلول الجذرية لمشاكله، ومواجهتها بأحسن ما يمكن، وفي مستوى التوجيه لكل الناس، أيًا كانوا، بأرائه السديدة، وبقدوته الحسنة.

لقد كان من عصره، والإنسان الذي هو من عصره بالحقيقة يكون دائما، وإن بكيفية ما، من كل العصور. «والرجال حَقًّا هم الذي يكونون من عصورهم، ويعيشون فيها» كما يقول «فريدريك روه» (Frédéric Rauh) الفيلسوف الفرنسي.

ويظهر لي أن علماءنا اليوم لا يعيشون في عصرهم لأن كل واحد منهم له جهة ما من عصور أسلافنا يعيش فيها بروحه، وينظر منها إلى مشاكل هذا القرن.

فمنهم من هو مع المعتزلة، أو ابن مسكوية، أو الغزالي، أو ابن تيمية، أو جمال الدين الأفغاني، ومنهم من هو مع غير هؤلاء من الأعلام، به يهتدي، ومنه يطلب الجواب عن كل صغيرة وكبيرة تعترضه من المشاكل. ولهذا فهم ليسوا من عصرنا، ولا من عصور أسلافنا، ومما كان فيها من الفتحوات المباركة في مجالات الدين والدنيا، بصفة كاملة، ولكن في أزمنة هامشية أو خيالية لا علاقة لها في النهاية بماضينا المشرق، ولا بحاضرنا المزري، ولا علاقة لها بما تتخبط فيه من الأحوال، ولكن بماض يستحوذ علينا لأنه يظهر لنا أجمل من حاضرنا بكثير وفي كل شيء، ويفرض علينا أن نجعل منه مثلنا الأعلى الذي يجب علينا تحقيقه في مستقبل ليس هو مستقبل الناس ولا واقعهم. ولذلك فنحن نتخبط في الأحوال منذ قرون ولازلنا. ولن نتحرر منها إلا في اليوم الذي سنفهم فيه أن الماضي لا يمكن أن يكون الحاضر أو المستقبل، وأن الإلتفات نحوه أو نحو المستقبل لا يمكن أن يفيدنا إلا إذا كان من حاضر نحن منه وكنا في مستوى المشاكل التي نواجهها، ويواجهها الناس فيه في بقاع الأرض كلها.

إن العالم هو المسؤول عن صحة دين الأمة، والمسؤول عن سعادتها في دنياها وأخرها، والمسؤول عن مساعي أولى الأمر فيها. وهو في خدمتها بما يقدمه لها من أسباب التقدم والرقي بعلمه، ومعرفته بالدين. ولا يصح بأية حال أن يكون في خدمتها بدعاويه أو قصوره لأن خدمتها بالدعاوي والقصور، أو من أجل الظهور أو الزعامة، أو الحكم، أو التمتع بلذات ما، عقيمة دائما، وهي ليست من شيم العلماء في كل أمة، ولا سيما في أمة النبي لأن العلماء فيها، كل منهم حسب درجته في العلم، واختصاصه فيه،



هم قلبها النابض وحصنها المنيع، وحارس أمنها الذي لا ينام، ونورها المبين، وقوتها التي لا تقهر، وعين أولى الأمر منها في أوقات الشدة والرخاء، أو حين يحتاجون إليهم للإشارة عليهم، أو لتذكيرهم بأيام الله حين ينسون أن واجبهم هو خدمة الأمة لا خدمة نفوسهم وذويهم.

11- إن الإمام السنوسي، وهو من علماء المسلمين الذين لا يُشَقُّ لهم غبار، لم يكن يطلب لنفسه في هذه البلاد زعامة سياسية، أو جاهاً دنيوياً، ولم يكن في هذه البلاد عنصر تفرقة وفتنة بين المسلمين ولكن عنصر تماسك وتهذيب، وسلام وترقية لكل واحد منهم بالنسبة للجميع، وللجميع بالنسبة لكل واحد منهم. لقد سهر على سلامة دينهم ولكن بالعلم، ولم يحرضهم ليحاربوا أولى الأمر منهم، وليكفر بعضهم بعضاً، وليفرض ناس منهم آراءهم على غيرهم بكثرة الصياح، وبالصخب والعنف والتهديد، ولم يحرضهم ليبعدوا عن مذهب مالك والأشعري والجنيد وأمثالهم من جنود الرحمن، وعسكر القرآن الذين هم عزّ هذه الأمة ومفاخرها الذين تتظاهر بهم حين تجتمع الأمم للمفاخرة، ولكنه نظر إلى حالتهم، ودرسها بعمق، ورأى أن انحرافهم عن الدين، وتخلّفهم في شؤون دنياهم هو بسبب جهلهم لأصوله، فقام يعلمهم إياها، وقد ألهمه الله تعالى «بفضله وعظيم جوده في زمانه الكثير الشرِّ لما لا يقدر على شكره عليه من معرفة عقائد الإيمان، وأنزلها جل وعلا في صميم قلبه بما تحتاج إليه من قواطع البرهان، وعلمه سبحانه وتعالى بمحض فضله وإحسانه جزئيات قلّ من يعرفها، ومن ينبه عليها بالخصوص من الأئمة الأعيان، وأرشده سبحانه بمحض كرمه لتحقيق أمور قد ابتليّ بالغلط فيها من لا يُظنُّ به ذلك ممن عرّف بكثرة الحفظ والإتقان.» (19)، ولقد كان من آثار قيامه لإيضاح عقائد الإيمان على حقيقتها للمسلمين على اختلاف طبقاتهم. أن ظهرت كتبه الخالدة التي انتشرت في كل مكان يوجد به مسلمون منذ أن ظهرت إلى اليوم. ومن بينها «المقدمات» و«صغرى الصغرى»، و«الصغرى»، و«الوسطى» و«الكبرى» التي يفتح كل منها أمام المقصود به من الناس باب العقيدة على مصراعيه بما يتناسب ومستواه العلمي، وبما يعده ليعيش للإسلام بتعاليم الإسلام، وبما يعده ليرتقي دائماً في مدارج كمالها بالفهم لها، والتعاطف معها والتسامح في تعامله بها مع نفسه، ومع المسلمين، ومع الناس كلهم لأن هذا الدين صرعة، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه، كما يقول النبي عليه الصلاة والسلام.

إن هذه حقيقة كان الإمام السنوسي يعرفها، ويأخذها بعين الإعتبار، ويطبّقها في الواقع. وما علينا إلا أن نرجع إلى الكتب التي ألفها في علم الكلام على قواعد من العقل السليم والمنهج القويم والدراية الواسعة بأسرار الدين والإيمان الراسخ بأن الإسلام دين للإنسانية كلها، لنرى أنها كتب يجد فيها كل إنسان ما تطمح إليه روحه من أنوار الحقيقة العليا، ولنرى أن صاحبها قصد بها الجزائريين، والمسلمين، والناس كلهم لأنه كان يعرف جيداً أن المسلمين والناس كلهم في بقاع الأرض كلها في حاجة إلى معرفة صحيحة بالإسلام، وفي حاجة إلى تقويم عقيدتهم وسلوكهم بعد تقويم عقولهم للخروج من الظلمات إلى النور... ولكن بالتدرج المحكم، والطريقة الناجعة...

12:- ويمكننا إذا رجعنا إلى هذه الكتب أن نرى أن نظرية الحكم وأقسامه، ومجال كلّ منها هي أول ما يتعرض له فيها، ونظرية الحكم هذه من نظرية المعرفة التي صارت مع الإمام أبي حامد الغزالي مقدمة

لكل بحثٍ في العقيدة، أو في الماورائيات بصفة عامة، وهي، في الجملة، طريقةُ الشك الذي خاض الإمام أبو حامد ظلماته لوجود النور، والبحثُ في قدرات العقل وأسباب المعرفة الذي يقدّم به الفخر الرازي والإمام سعد الدين التفتازاني لكتبيهما (21) ونظرية الحكم التي يفتح بها الإمام السنوسي كتبه تمهيداً، وإعداداً لدراسة ما بعدها من مسائل علم الكلام، (22) وهي، من بعد هذا من مميزات حكمة الحدائث في الفكر الإسلامي، ومن مميزات الحدائث الأوروبية التي تدين له بالكثير من فتوحاتها، على يدي ديكرات وكانظ من بين أعلامها (23)، وهي، في النهاية، نظرية صار الفلاسفة يهتمون بها ويبتون فيها قبل الشروع في دراسة الفن الذي يريدون الإمام به، لأن ما يأتي بعدها يترتب عليها، أو على ما يقع التوصل إليه فيما يتعلق بها. ولهذا، فهي نظرية لا يمكن أن يخفي علينا أن إحاطة المسلم بها، حسب مستواه، يؤهله إلى أن يتعلم أصول دينه بالطريقة الصحيحة وإلى أن يدرس مسائلها بما يجعله يدركها في أبعادها القريبة، وأبعادها القصوى، أو في ظاهرها وباطنها من جهة، وبما يجعله في مأمن من تسلط المتعلمين والمتربطين والجهال عليه بأباطيلهم مهما كان زخرفها.

13:- هذا، ولا تظهر لنا حدائث الإمام السنوسي وثورته على أوضاع زمانه الفاسدة في توجهه لعلم الكلام فحسب لي جعل منه منطلقاً نهضة المسلمين، وضماناً لاستمرار وجودهم وسلامته لأنه لا حياة لأمة بدون عقيدة صحيحة، ولكنها تظهر لنا، أيضاً، في تعليمه المسلمين علم الكلام على أساس من نقد العقل وأسباب المعرفة، وفي اهتمامه بالعلوم الرياضية، والعلوم التجريبية والتقنية، وغيرها، وفي اهتمامه بالفلسفات والديانات وفرقها، وفي معالجته لمسائل علم الكلام بطريقة تسمح لدراسها مهما كان مستواه بأن يرقى إلى الخوض في أسى وأعز ما يهتم به الفكر البشري من قضايا الألوهية، والوجود، والزمان والمكان، والمادة، والعلم والحرية، والمتناهي واللامتناهي، ومبادئ العقل، والروحي، والرسالة والعالم السفلي، والعالم العلوي، وأسس الحكم والأخلاق أو الحسن والقبح، وغيرها من القضايا التي قدمت فيها طريقة المحدثين في الإسلام إلى مدرسة الحدائث في أوروبا كل ما قامت عليه، ووصلت به إلى ما صارت إليه في أوروبا، ولم نصل نحن إليه لأننا توقفنا عن طلب العلم، وأهملنا تراث أسلافنا، وصرنا دون مستواه (24)

14:- إن إهتمام الأوربيين بالإمام السنوسي، وافتتان بعضهم بفكره تفسره لنا تأليفه ذات البنية المحكمة، وعقلانيته الصارمة وحدائث فكره وجدته الدائمة. لقد كان رحمه الله مثالاً للعالم بالحقيقة الذي هو أهل للحديث عن الدين وبإسمه، وأهل لتمثيل علوم عصره وثقافته أحسن تمثيل، لأنه كان على اطلاع واسع بظلماته وأنواره، وبهاويه وأعالیه. فالإيمان وقواعده الصحيحة لم تكن تخفي عليه... وكذلك الكفر وأصوله الباطلة... وهكذا يجب أن يكون علماء الإسلام في كل زمان ومكان حتى يكونوا خدمة له ولبائده، ولا يكونوا خدمة لضلالات نفوسهم ورغباتها في مغريات هذه الدنيا التي لا تساوي عند الله جناح يعرضه، من الزعامة، والظهور، والجاه، والكرسي، والسلطة، والمال، والأبهة، وغيرها

إن علماءنا، اليوم، ليسوا، إلا قليلين منهم، وفي مستوى العالم الإسلامي كله، من طراز الإمام السنوسي. ولذلك فنحن لا نستطيع أن نقارنهم به وبأمثاله، ولا أن نجعلهم أنداداً له ولأمثاله لأن تكوينهم

يبعدهم عن مقامه ومقام أمثاله بما لا يتناهى... وبالفعل فَمَنْ من علمائنا اليوم هو في مستوى علماء الأمم، أو في مستوى قداماء علمائنا في إحاطتهم بمعارف العصر، وقدرتهم على إثرائها...

15:- إن العلماء بالحقيقة يعوزوننا. ولذلك فنحن متخلفون، وعالة على غيرنا، وهدفٌ له. ويظهر أننا لن نخرج أبداً من تخلفنا بوجهه كلها إلا في اليوم الذي تصير فيه مدارس بناتنا وأبنائنا لتعليم القرآن أو الكتاب العزيز، وتصير فيه معاهدنا وجامعاتنا للعلوم الدينية نموذجية. ولن يكون هذا إلا بعد جهود طويلة، وعلى أيدي ناس هم، حقاً، علماء، وليسوا هواة، أو متعلمين، أو ناقصين في تكوينهم، أو باحثين. عن الزعامة والظهور، تركوا مهنتهم الأصيلة وصاروا يشتغلون بالدين لاعتقادهم أن فهماً ظاهراً له يكفيهم ليتحدثوا عنه، وباسمه كالأئمة العظام، إن الحديث عن الإسلام وباسمه صعب جداً لأنه دين العلم بالحقيقة، والعلم بالحقيقة لا يكون إلا لمن درسوه على المشايخ الأجلاء، واعترف لهم هؤلاء بالمشيخة فيه. إن هذه هي طريقة أسلافنا. ويجب علينا أن لا نحيد عنها حتى لا نفتتح باب التطفل على الدين لكل من هبّ ودبّ. فالمعرفة درجات في الرياضيات وفي الطب، وفي الدين... ومن الواجب علينا، نحن المسلمين، أن لا ننسى هذه الحقيقة، إذا كنا للإسلام، ولم نكن لنفوسنا وأهوائنا. ومن الواجب علينا، من بعد هذا، أن لا نخلط الحابل بالنابل، وأن نهتمّ بتكوين علماء ديننا إذا كنا نحبه، وكنا نريد لمبادئه العليا السيادة فوق هذه الأرض... وفوق ربوع بلادنا بالخصوص...

16:- إن الإسلام الذي هو دين للإنسانية كلها ليس هو تصوّرنا القاصر له، ولا تصوّر المذاهب الكثيرة التي تدّعيه عبر العالم لنفسها وتنفيه عن غيرها، ولكنه تعاليم القرآن السامية، وفهم علماء القرآن الأعلام لها. وهؤلاء هم العلماء بالحقيقة، وفي الجزائر المهاركة كثيرون منهم منذ أن شرّفها الله بدينه إلى اليوم...

هذا، وبما أن مذاهب كثيرة قد بدأت تفزرو أرضنا الطاهرة بطرق لا نحبها فإنه يجب علينا أن ننبّه إلى أنها مذاهب لا يمكنها أن تأتينا بأحسن مما عندنا، وإلى أنها مذاهب لا يمكننا إلا أن نرفض بقوة، ما يمكن أن تأتينا به مما يخصّها، لا لتعصّب منا أو عدم معرفة به، ولكن لأنه لا علاقة له بالدين وروحه. (25)

17:- هذا، والجزائر ليست في حاجة إلى من يعلمها شؤون دينها، أو يذكرها به، لأن دينها بخير، ولأن لها من العلماء أمثال الإمام السنوسي من تأخذه عنهم لا لأنهم علماءها، ولكن لأنهم علماء الإسلام، وأعلامه في أراضي الإسلام كلها، وهم أئمة الذين قدّموا للمسلمين في هذه البلاد، وفي بقاع الأرض المختلفة ما يعلمهم أمور دينهم بالطريقة المثلى التي تمكّنهم من فهمه وفهم أبعاده على حقيقتها، وبما يجعلهم يتقدمون ولا يتأخرون، ويهتدون ولا يضلون. إن المسلمين الذين يزدان بهم سطح المعمورة، والذين هم المثل الأعلى للجماعات الأخرى بسلوكهم الرفيع في أعماق إفريقيا، وفي آسيا وجزرها، وفي مدن أوروبا، وأميركا الصاخبة، يرجعون إلى كتب الإمام السنوسي ليتعلموا منها أصول دينهم على أساس من النقل الصحيح والعقل السليم. وهم يرجعون إليها لما يجدونه فيها من الإستجابة إلى ما تطمّح إليه نفوسهم. من التعلم والإهداء، والكمال والسعادة، ولما يجدونه فيها من المباحث التي توجههم إلى التأمل والفهم، وتشريهم وتفتح قلوبهم وعقولهم إلى أنوار الحضارة الراقية. ولهذا فإننا لا نبالغ إذا قلنا إن

الإمام السنوسي كان في تلمسان قلعة للإسلام، وأستاذاً للمسلمين في عصره وبعده، وكان أيضاً، إماماً خدم هذا الدين بما يشرف الجزائر إلى الأبد، ويجعل منها أرضاً مباركة يستضيء الناس بأنوار علمائها، ويهتدون بها حتى في الأماكن المهجورة النائية. وبالفعل فكتبه في علم الكلام هي التي كانت تدرس بجامعة «قَثْبَكْتُو» في «مالي»، وجامعة «شنقيط» في موريطانيا حين كانتا قائمتين... وهي التي لازالت تدرس منذ ظهورها إلى اليوم بجامعة القرويين في فاس، والزوايا في الجزائر، والجامعة الزيتونية في تونس، والأزهر الشريف في مصر، والمعاهد الدينية في آسيا، وبلدان الإسلام في روسيا، وغيرها من المعاهد في بقاع الأرض كلها... وهو أمر نجهله لأن تخلفنا بسبب الإستعمار زيادةً على تخلفنا بما أصاب العالم الإسلامي كله من التدهور والإحتطاط جعلنا ننسى أمجادنا، وخدمات علمائنا للإسلام والمسلمين عبر العصور، وجعلنا نعتقد أن الإسلام الصحيح بعيد عنا، وأنه يجب علينا أن نطلبه من غيرنا، وأن نستورده لنعود إليه، من غير تمييز بين حالنا وحال الناس، وبين ما قام به علمائنا وقام به غيرهم، ومن غير دراية بهذا وذاك...

18:- إن الجزائر التي صار الإسلام روحاً لها منذ أن أشرقت أراضيها المباركة بأنواره لم تحد عنه، ولن تحيد عنه أبداً مهما كانت الظروف... فهو الذي يستنير به أبنائها، وهو الذي تقوم عليه حياتهم وهو القوة التي يعتمدون عليها في أوقات الشدة فيتحملونها، ورؤوسهم مرفوعة، والفضيلة التي يتمسكون بها في أوقات الرخاء فيستقبلونه، ونفوسهم كريمة سخية، إذ لا ينسيهم الرخاء آلام غيرهم من الناس، ولكنه يوقظهم إلى فعل الخيرات فيؤثرون على نفوسهم، ويقدمون غيرهم عليها لأنهم يرون في تحقيق تعاليم دينهم عزهم ووزنة وجودهم...

هذا والجزائر التي دافعت عن هويتها يحفظها لكتاب الله في أيام محتتها، والتي حاربت سنين طويلة تحت رايته لاسترجاع سيادتها، ومن أجل أن تسود تعاليمه بين أبنائها، والتي صار رئيس جمهوريتها منذ الإستقلال إلى اليوم يوزع الجوائز على حافظاته وحفظته من بناتها وأبنائها في ليلة القدر من كل عام تذكيراً للأمة بعظمة دينها وكتابه، وتقديراً لها ولأسلافها وشهدائها، ووفاء لهم، بلاذ تعيش بالإسلام منذ قرون، وستعيش به إلى الأبد.

وهي إذا كانت تقدر علماء المسلمين من أي بلد كانوا فلأنها تحب العلم والعلماء لكونها بلدهم وموطنهم، ولأنها تحب الإسلام والمسلمين بما لا يتناهى. وإذا كانت تؤثر على نفسها حتى ولو كانت بها خصاصة فلأن ما يؤلم المسلمين مهما كانوا يؤلمها، ولأن ما يسعدهم يسعدنا، ولأنها، زيادة على هذا، تعرف ما هو الإسلام، ولا يمكنها، لأنها تعرف الإسلام وسماحته بما غرسه علماءها بالحقيقة في أعماقها، أن لا تستجيب لندائه القدسي... وهذا الموقف من طرفها دائم لا يزول، ونبيل لا تشوهه الأغراض. ولهذا فإنها لن ترضى أبداً أن تعكّر انحرافات المذاهب ورُعمائهم وأجرائهم أنوار الإسلام في قلوب بناتها وأبنائها، أو فوق ربوعها الطاهرة المباركة. وهي، من بعد هذا سنية، وستبقى سنية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

19:- وما المدارس القرآنية، وما المعاهد، وما الجامعات التي انتشرت فوق ربوعها لتعليم القرآن وتدرّس علوم الدين، يعون من الله وتوفيق منه، بعد الإستقلال، إلا قلاع تحميها من ضلالات المنحرفين

مهما كانوا، ومنازلُ تهديها إلي المنهج القويم، ومَعَالِمُ تربط حاضرها بماضيها، وتجدّد صلّتها بعلمائها ابتداءً من الإمام عبد الحميد بن باديس إلى الإمام السنوسي، ومنهما إلى الفقهاء العشرة الذين أرسلهم سيدنا عمر بن عبد العزيز إلى شمال إفريقيا ليعلموا الناس دينهم، وكتابه ولغته... وهي مؤسسات ستكون حين تكتمل مقومات عملها، أو حين يصير تكوينها قائماً على برامج وافية، وتدرّسها خاضعاً لمقتضيات المناهج الدقيقة؛ ويصير لها من الأدوات التعليمية ما لا بد منه في كل تكوين نموذجي، ومن الأساتذة والمسيّرين أهل المعرفة بعلوم الدين ولغته، ويعلمون العصر ووضعها عبر العالم، مراكز إشعاع حضاري صحيح تعود به الجزائر إلى ما كانت عليه في عهدها الغابرة، أرضاً تنتشر منها أنوار الإسلام المباركة على الأرض بأسرها.

20:- إن الإسلام دين عظيم مهما كانت الزاوية التي ننظر منها إليه لأنه الحضارة في أعلى قممها بالنسبة لكل من يعيش به. ولهذا فهو دين لا يستطيع أن يتولى أموره في كل مرحلة من مراحل التاريخ البشري إلا العلماء العظام الذين "تكونوا" على أيدي المشايخ الأجلاء، أو في معاهد العلم بالحقيقة، وصاروا يفهمونه بعمق، ويستطيعون أن يحققوا السيادة لتعاليمه بين الناس بالحجة الدامغة، والحكمة الواسعة، والموعظة الحسنة، وهم علماء يمكننا أن نتخذ الإمام السنوسي الذي هو منهم بتكوينه، ومستواه، وبآثاره وتأثيره، وبصفاته كلها مثلاً لهم يُعَرِّفُنَا بهم، ومثلاً لنا. نقتدي به في تعليمنا لبناتنا وأبنائنا، وفي معرفة العالم والتعامل منا بما يجعلنا فصيل إلى الأول، ونحن مطمئنون، ونعرض عن الثاني، ونحن على بَيِّنَةٍ من أمرنا... إن العلماء الذين درس الإمام السنوسي عليهم هم عيون زمانهم في العلوم النقلية والعقلية، ولقد أخذ عن كل منهم زبدة علمه وآخر ما وصل إليه البحث فيه. لقد درس فنون العربية على الشيخ نصر الزواوي وغيره، والقراءات على الشيخ أبي العباس الشريف الحسني، والتفسير على الشيخ عبد الرحمان الثعالبي، وإرشاد الإمام الجريني في علم التوحيد على الشيخ أبي القاسم الكنانشي ومدونة مالك علي الشيخ المغيلي، والتصوف على الشيخ إبراهيم التازي والرياضيات على الإمام القلصادي الذي سبق «أفييت» Viète «و«ديكارت» في استعمال الحروف والرموز لحل المعادلات الجبرية، والطب على عدّة من العلماء، والفلك وعلم الإسطرلاب على الإمام الحياك.

ولهذا كان عالماً من زمانه، وفي مستواه وعالمنا يمكننا أن نتخذة دليلاً في معرفة العالم في الدين بالحقيقة، وفي بحثنا عن الطريق التي يجب علينا أن نسلكها لنخرج من تخلفنا بصفة نهائية.

21:- ولعل الوصية التي يمكننا أن نتصوره سيدلى بها إلينا لو كان حياً وطلبناها منه هي أن نعرف جيداً أن دراسة علوم الدين لا تكتمل إلا بدراسة ما نسميه بعلوم الدنيا، وأن نهتم كل الإهتمام بتعليم الدين لبناتنا ولأبنائنا في هذه المرحلة من تاريخنا لأنه لا يمكن أن يكون لنا نهوض حق إلا إذا أسسناه على معرفة كاملة بدين الحق، وأن نجعل القرآن الكريم والعقل السليم أساساً لإيماننا وما يترتب عليه، وأن نعرف جيداً أن العلماء درجات، وأن أكابرهم هم المسؤولون عن أمور ديننا، وأمورنا كلها، وأن نعرف أن الفهم الظاهر للدين لا يسمح لنا بالحديث عنه باسمه، وكمسؤولين عنه، لأنه ليس هو فِهْمُ العلماء العميق له، وأن نتمسك نحن الجزائريين بالإسلام السني الذي رسخه هو وأمثاله في أعماق وعينا، والذي

دأقنا به عن هويتنا وكرامتنا، واستشهد من أجله مليون ونصف مليون من الأبطال، وأن نرجع دائماً إلى أصولنا الراسخة لنجد طريقنا إلى مستقبلنا المشرق، وأن نجعل من الجزائر منارة للإسلام يستفيد الناس كلهم من أنوار هديها، وأن نكون للجزائر، وللجزائر السنية دون سواها في هذه الأيام الصعبة التي تُمرُّ بها، والتي يتماوج فيها العالم بأنواع من التيارات لا يعلم إلا الله ماذا سيكون عنها، إذا كنا حقاً من المتمسكين بهذا الدين، وكنا حقاً من أبناء الجزائر التي خدمت المسلمين والإنسانية كلها ببطولة أبنائها الأسطورية وبهروء علمائها الأعلام. والمروء العلمية عبارة كان الإمام السنوسي يصف بها العلماء بالحقبة خدمة المسلمين والإنسانية كلها، طلباً للفوز برضى الله دون سواه. وهي عبارة ينبغي لنا أن نعرف أنها تدل على علو الهمة وشرف النفس، وعلى العفة والنزاهة والصيانة، وعلى المسابرة أو العفو والمسامحة(26)،، لنفهم ماذا يعني الإمام السنوسي بالعلماء أصحاب المروء العلمية، ولنعرف أن الجزائر بلادنا الغالية في حاجة إليهم، وليست في حاجة إلى غيرهم مهما كانوا....

الربيع ميمون

## المراجع

- 1:- الغزالي، مدارج القدس، ص69، مكتبة الجندي، القاهرة، بدون تاريخ
- 2:- الغزالي، راجع: المنفذ من الضلال.
- 3:- راجع عبد الكريم العثمان، الدراسات النفسية عند المسلمين، ص. ك، القاهرة 1963
- 4:- نفس المرجع
- 5:- العواصم من القواصم، تحقيق الأستاذ عمار طالبي. الجزائر، بدون تاريخ، ص 107
- 6:- راجع ابن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد الواحد وافي، ج3. ص 1044-1049، القاهرة 1960.
- 7:- نفس المرجع، ص 1091
- 8:- Cf. Hélène védrine, les philosophies de la Renaissance, P.U Paris, 1971.
- 9:- محمد الحجوي، الفكر السامي، ج2، ص 115، وج 3، ص 108، وص 51، تونس، بدون تاريخ.
- 10:- راجع، كتاب الإيمان من صحيح البخاري حيث توجد أحاديث متعددة يتبين منها ما يترتب على الإيمان الحق.
- 11:- ص. 4، 5، القاهرة 1937.
- 12:- ص، 42، البليدة- الجزائر، 1989
- 13:- نفس المرجع، ص 44-45
- 14:- نفس المرجع 45-47
- 15:- Descartes, Discours de la Méthode, 4rtie
- 16:- الإمام السنوسي شرح أم البراهين، ص 15، القاهرة، 1924
- 17:- نفس المرجع، ص 68-71
- 18:- نفس المرجع، ص 67-68
- 19:- نفس المرجع، ص 17
- 20:- راجع المنفذ من الضلال.
- 21:- راجع: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للفخر الرازي (المقدمات) وشرح العقائد النفسية للتفتازاني، (المقدمة)
- 22:- راجع كتب السنوسي: المقدمات، وصغرى الصغرى وغيرهما
- 23:- Cf. Descartes: Discours de la Méthode/ Kant, Les Trois Critiques.
- 24:- تراجع فيما يتعلق بهذه المسائل كتب السنوسي في علم الكلام
- 25:- إن المقارنة بين مذاهب مالك والأشعري والجنيد، والمذاهب الأخرى تبدي بما لا شك فيه احتواء الأولى على حسنات غيرها، وتَفوقَهَا عليها في أمور كثيرة أبرزها التفتح والتسامح مع المسلمين والناس كلهم.
- 26:- راجع، أبو الحسن الماوردي، أدب الدين والدنيا، دار الفكر، بدون تاريخ، ص ص، 306، 334.